الفنون الإسلامية

تمهيد

للثقافة الفنية الإسلامية شخصية تميزها عن غيرها ، وأول ما يلفت النظر فى شخصية الفن الإسلامي ، هو أنه يتمثل فى أشكال مجرده نباتية أو هندسية أطلق عليها اسم الرقش (Arabersque) ، يختلط فيها أو يماثلها فن الخط العربي الذي تنوعت أشكاله حتى قاربت المائة شكل . وهذا الفن يتمثل فى أشكال مشبهة محوره تقوم على التحوير وفقدان المنظور الخطي والكثافة (ملء الفراغ) . وما يميز الفن الإسلامي عن غيره من الفنون كالتى ظهرت فى الحضارات اليونانية القديمة ، أو الحضارة الأوروبية الحديثة ، إن الفن الإسلامي أقام علاقة متفاعلة بين الفن والمادة ، فالفن الإسلامي ظل وحيداً من حيث الرؤيا الجمالية والفلسفية ، ومن حيث الغاية والوظيفة فيما هو يتنوع فى تحليلها ، سواء على المعدن أو الخزف أو الورق أو الحجر أو الطين ... فلم تؤثر المادة على الجوهر الفني ، والتآلف الذي بين المادة والجوهر هو تآلف شهد على غنى الجوهر الفني لا على غنى المادة ، على العكس من كثير من الفنون الأخرى التى عرفتها الحضارات. والصفات الواحدة للفن الإسلامي عبر كل العصور وعبر كل الأنواع لا تعني أنه فن لم يتطور أو لم ينم، بل تعني أنه فن لم يغير فى فلسفته وجماليته المستقلة على اساس التطورات السياسية والاجتماعية كما في الفنون الأخرى ، والإضافات التى اكتسبها الفن الإسلامي بين عصر وعصر وبين نوع ونوع لا تعد في الحقيقة كونها حلولاً جديدة أو احتمالات أو امكانات لتوالد مبدأ الوحدة الذي التزامه الفن الإسلامي، فقد حدث من ازدهار السلطة السياسية وانتقالها من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن تطور فى التقنيات ، وفى إيجاد حلول جديدة، وتطويع مواد جديدة من دون أن يكون لذلك تأثير على الموقف الفلسفي أو الجمالي للفن الإسلامي.

و إن كان الفن الإسلامي يتميز بالوحدة و بنفس الروح النابعة من الدين الإسلامي، فهو يتميز أيضا بالتنوع الكبير حسب المكان و الزمان و التقاليد المحلية في كل اقليم من الاقاليم الاسلامية و ما تتميز به مواد و تقاليد فنية. و على هذا الاساس يمكن تقسيم الفن الاسلامي إلى المدارس التالية.

الفن الأموي

مع قيام الدولة الأموية (41-132هـ) و انتقال مركز الدولة الاسلامية إلى بلاد الشام و أصبحت مدينة دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية. في هذه الأرض المشبعة بالتقاليد الفنية الهيلينيستية و الرومانية نشأ الفن الإسلامي و تطور متأثرا بالتقاليد الفنية البيزنطة خاصة و بدرجة أقل بالتقاليد الفارسية. و يعد الجامع الأموي بدمشق وقبة الصخرة بالقدس، أهم الإنجازات العمرانية و الفنية الاسلامية الأولى، و تظهر فيهما أساليب الفنون التي كانت سائدة في بلاد الشام قبل دخول الإسلام لها ، حيث اقتبس تصميم هذه المساجد من تصميم بعض الكنائس التي كانت موجودة في الشام وإن اختلفت عنها فى التفاصيل.

استعملت الفسيفساء بشكل واسع في تزيين المباني الأموية و بشكل خاص قبة الصخرة المشيدة سنة 72 هـ (صورة رقم 01) و الجامع الأموي بدمشق المشيد ما بين 88-96هـ. كانت الجدران الخارجية و الداخلية لقبة الصخرة

PDF Creator Trial

صورة رقم 01 : قبة الصخرة بالقدس

صورة رقم 02 : نموذج من فسيفساء قبة الصخرة

مكسوة كليا بالفسيفساء، و إذا كانت الفسيفساء الخارجية للقبة قد وعوضت بالقاشاني في العهد العثماني، فهي لا تزال تحتفظ بقسم هام من الفسيفساء التي تكسو جدران و عقود الممر المثمن حول الصخرة. مواضيعها مستمدة من التراث البيزنطي مثل أوراق الأكانتس و المزهريات (صورة رقم 02) و الجواهر و قرون الخير و بعض الرموز الساسانية. أما في الجامع الأموي بدمشق (صورة رقم 03) فإن الفسيفساء تكسو مساحات واسعة من الأروقة و العقود المطلة على الصحن، أما المواضيع الممثلة عليها فإلى جانب المواضيع المستعملة في قبة الصخرة بالقدس، فإن الموضوع المميز في فسيفساء الجامع الأموي هو موضوع المباني المتكونة من عدة طوابق بدون أسوار و تحيط بها الحدائق (صورة رقم 04) و يرى فيها البعض انها رمز إلى لديار الإسلام.

صورة رقم 03 : الجامع الأموي بدمشق

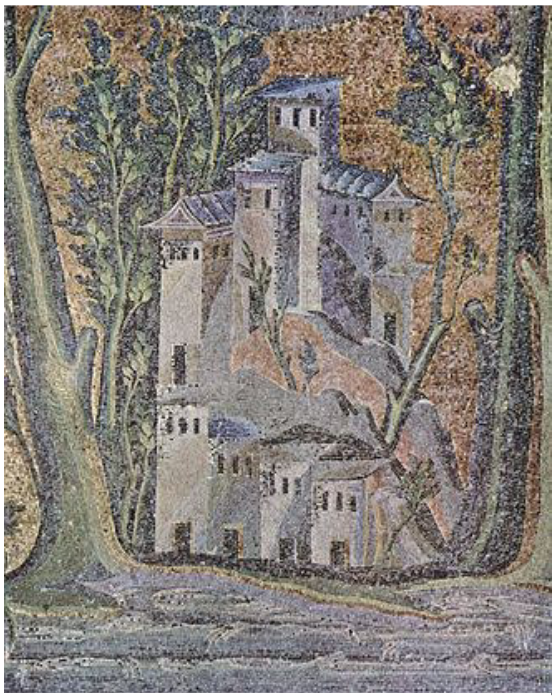

صورة رقم 04 : نموذج من فسيفساء الجامع الأموي

و إن كانت من النحية التقنية تعد امتدادا لفن الفسيفساء البيزنطية، فهي تختلف عنها من حيث المواضيع المستعملة حيث اقتصرت على الزخارف النباتية و المباني ...ألخ و هذا ما يؤكد التوجه الإسلامي منذ هذه الفترة إلى كراهية تمثيل الكائنات الحية (الانسان و الحيوان) في المباني الدينية. أما في القصور فنشاهد لوحات من الفسيفساء الجميلة تمثل حيوانات أشهرها

PDF Creator Trial

لوحة فسيفسائية من قصر خربة المفجر و التي تمثل شجرة الحياة و على احد جانبيها أسد يفترس غزال و على الجانب الأخر غزالين (صورة رقم 05).

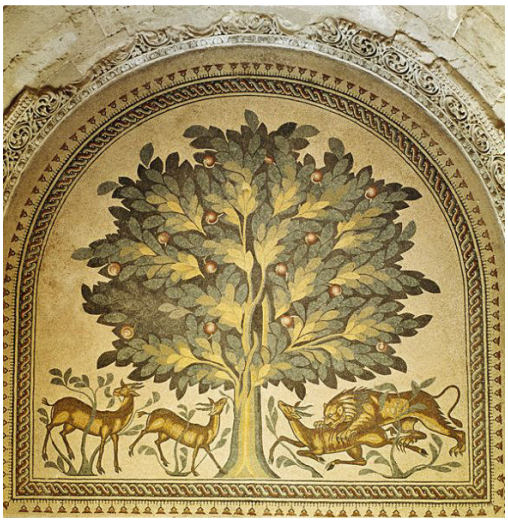

صورة رقم 05 : فسيفساء من قصر خربت المفجر

صورة رقم 06 : زخرفة جصية لرؤوس أدمية من قصر خربت المفجر

يظهر التأثير البيزنطي و الهيلينيستي واضحا في زخارف القصور الأموية المشيدة ببادية الشام. ففي قصر خربت المفجر نشاهد زخارف منقوشة على الجص لطيور و رؤوس أدمية تحيط بها ورقة الأكانتس (صورة رقم 06) و تماثيل صغيرة لنساء عاريات و بدينات (صورة رقم 07). أما على واجهة قصر المشتى فنشاهد بساط من الزخارف النباتية الكثيفة من اشجار و اوراق العنب الهيلينيستية تشكل أرضية لطيور و أسود وحيوانات خرافية (صورة رقم 08). كما وصلتنا نماذج من الرسوم الجدارية الأموية اهمهما ما وجد في قصير عمرة و التي تمثل حيوانات بداخل مساحات معينة، و نساء عاريات و قبة السماء و يظهر من خلال المواضيع و أسلوب انجازها الاسلوب الهيلينيستي بشكل واضح .

صورة رقم 07 : امرأة من قصر خربت المفجر

صورة رقم 08 : واجهة قصر المشتى

PDF Creator Trial

لقد شهد العصر الاموي احتكاك المسلمين بحضارات الشرق العريقة و اعتمادا على ذلك الموروث الفني الغني شرعوا في تأسيس لفن جديد، يعتمد على المبادئ الروحية للدين الاسلامي، فنشاهد استعمال عناصر و مواضيع زخرفية و تقنيات مستمدة من الحضارات القديمة و لكن وضفوها بشكل جديد يدل على روحة جديدة، تبلورت لاحقا لتعطي فنا اسلاميا بحتا.

الفن العباسي

بقيام الخلافة العباسية (132-447هـ) انقل مركز الدولة الإسلامية من بلاد الشام إلى العراق، و اسست عاصمة جدية و هي بغداد القريبة من المدائن عاصمة الساسانيين. و تميز العصر العباسي بتوغل النفوذ الفارسي في الدولة و الذي شجع انتشار الثقافة الفارسية، مما كان له اثر الكبير في الثقافة الاسلامية التي كانت متأثرة حتى ذلك الوقت بالتأثيرات الكلاسيكية الموجودة ببلاد الشام، وكان من نتائج انتشار الثقافة الإيرانية على يد العناصر الفارسية بدء حقبة جديدة فى الفن الإسلامي تظهر فيها المؤثرات الفنية الساسانية و التقاليد المحلية لبلاد الرافدين، في الوقت الذي قلت فيه التأثيرات الهيلينسيتية والبيزنطية، كما تأثر الفن العباسي بالثقافة التركية التي ظهر نفوذها لأول مرة في العصر العباسي حيث اقتبس منها الفن الإسلامي عناصر وأساليب زخرفيه مستمدة من أواسط آسيا لم تكن معروفة في الفن الساساني ولا البيزنطي، وظهر ذلك في الحفر المشطوف على المنحوتات الحجرية والجصية والخشبية.

صورة رقم 09 : جامع المتوكل بمدينة سامراء

و إن كانت معالم مدينة بغداد العباسية قد اندثرت، فإن أطلال مدينة سامراء لا تزال قائمة لتعطينا فكرة و لو كانت غير كاملة عن الفن العباسي الذي بلغ أوج عظمته خلال الثالث الهجري / التاسع عشر الميلادي في هذه المدينة و منها وانتشر إلى سائر ديار الإسلام و خاصة في مصر الطولونية.

شهدت مدينة سامراء تشييد مساجد ضخمة من الأجر بمآذنها الدائرية التي يلتف حولها سلم خارجي يذكرنا بالزاقورات التي اشتهرت بها بلاد الرافدين في العصر القديم (صورة رقم 09). كما شيدت بها القصور الضخمة على غرار قصر بلكوارة، الجوسق الخاقاني (صورة رقم 10) و قصر العاشق. تميزت هذه القصور بمساحتها الضخمة و ساحاتها الواسعة التي تفتح عليها مختلف قاعات و غرف القصر و بحدائقها. و هي كغيرها من مباني المدينة مبنية بالآجر تسمح بالبناء بسرعة كبيرة. و تميزت هطه القصور من الناحية الزخرفية الاعتماد على مادة الجص لكسوة جميع الجدران بزخارف جميلة تبلورت في مدينة سامراء و اصبحت تميز الفن الاسلامي منذ ذلك التاريخ و التي تعرف بفن التوريق او الرقش العربي (الأربسك). و قد اتبع انجزت هذه الزخارف وفقا لعدة تقنيات منها النقش القائم و المشطوف أو عن طريق تقنية الطبع التي سمحت بكسوة مساحات واسعة من الجدران بأقل جهد و في فترة زمنية قصيرة و قد قسمت زخارف مدينة سامراء إلى ثلاثة أنماط :

PDF Creator Trial

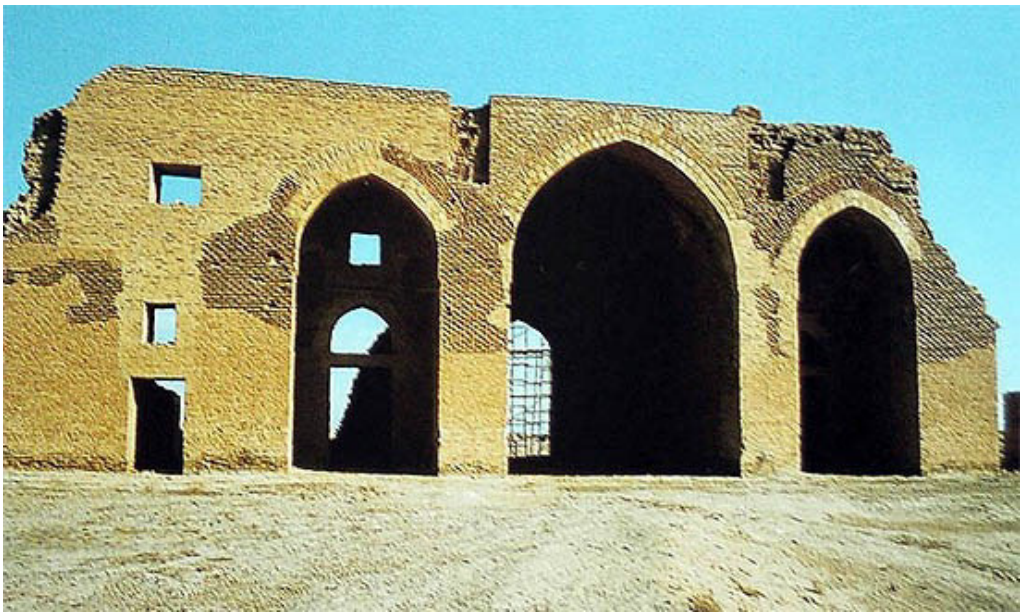

صورة رقم 10 : احد مداخل قصر الجوسق الخاقاني

النمط الأول : و قد ظهر في مباني الفترة المكبرة، و يتميز باستعمال تفريعات أوراق العنب و كيزان الصنوبر و المراوح النخلية و اشجار و ازهار (صورة رقم 11). و قد نظمت بداخل مساحات هندسية تشبه ثلاثية تشبه زخارف قصر المشتى. أما النمط الثاني فهو يتشكل من عناصر تبتعد عن محاكاة الطبيعة و تتكون من أوراق نباتية دائرية و من أشكال مختلفة من المراوح النخلية (صورة رقم 12)، و استخدم في انجازها النحت الماشل بحيث تتقابل حوافها ببعضها البعض في شكل زوايا متعرجة. النمط الثالث و عرف تطورا كبيرا حيث تحولت الوحدات الزخرفية إلى اشكال تجريدية (صورة رقم 13) كما أن أرضيتها أكثر عمقا، كما ظهرت تقنية أخرى في انجازها و هي صب في قوالب مزخرفة ثم ضغطها على الجدران.

صورة رقم 11 : نموذج من النمط الأول من زخارف سامراء

صورة رقم 12 : نموذج من النمط الثاني من زخارف سامراء

PDF Creator Trial

صورة رقم 13 : نماذج من النمط الثالث من زخارف سامراء

كما زينت الأقسام العلوية من القصور العباسية بزخارف منجزة بالألوان، و هي منظمة بداخل مساحات مربعة أو مستديرة و يحيك بها إطار مزين بحبيبات و اشكال قلبية الشكل. اشهرها ما وجد بجناح الحريم بأحد قصور سامراء و التي تمثل راقصات و نساء يعزفن على ادوات موسيقية (صورة رقم14). و يبدو التأثير الفارسي واضح في اسلوب هذه الرسوم و الذي يختلف عن الاسلوب الهيلينستي الذي استعمل في انجاز رسوم القصور الاموية. حيث عمل الرسام على تحديد العناصر بلون أسود قاتم ثم استعمل الألوان لملء المساحات. و يظهر نساء بوجوه دائرية ممتلئة و عيون لوزية ذات شعرها طويل بشكل ضفائر مسدول على الكتفين. و هو اسلوب مشتق من امثلة وجدت في اسيا الوسطى و نقلها الأتراك إلى العراق.

صورة 14 : نموذج من رسوم مدينة سامراء

PDF Creator Trial

ازدهر فن الخزف الاسلامي في العهد العباسي متأثرا بالخزف الصيني ذو التعريقات و البقع الملونة و صنعوا أواني خزفية لتقليدها (صورة رقم 15). غير ان اهم ابتكار اهتدى إليه الخزافون المسلمون في العراق اكتساب الاناء الخزفي بريقا معدنيا يتراوح لونه من الاحمر النحاسي إلى الأصفر المائل إلى الخضرة (صورة رقم 16). و كان هذا البريق المعدني يكسب السطح لمعانا معدنيا يشبه لمعَّان الأواني المعدنية و بذلك استغنوا عن الاواني الذهبية و الفضية التي كان الفقهاء المسلمون استنكروا على الحكام استعمالها لدلالتها على الترف و الاسراف. و يعد هذا النوع من الخزف أقدم انواع الخزف الاسلامي الذي ظهرت به زخارف أدمية و حيوانية (صورة رقم 16 و 17).

صورة رقم 15 : خزف عباسي من سامراء تقليد للخزف الصيني

صورة رقم 15 : خزف ذو البريق المعدني من سامراء يمثل راقصة

صورة رقم 16 : خزف ذو البريق المعدني من سامراء يمثل أرنب

PDF Creator Trial

الفن الأموي بالأندلس

أسس عبد الرحمن بن معاوية الدولة الأموية فى الأندلس بعد نجاته من بطش العباسيين (138–422 هـ) واختار قرطبة كعاصمة لها، وقد نتج عن فتح المسلمين لأسبانيا اتصال فنون وثقافات الشرق الأوسط بأوروبا الغربية، وقد تميز الفن الأموي الغربي باحتفاظه ببعض الأساليب الكلاسيكية الموجودة فى أوائل الفن الأموي فى العصر الأول وبخلوه من نفوذ التأثيرات الفنية الأسيوية التركية التي ظهرت في المشرق الإسلامي.

يعد جامع قرطبة (صورة رقم 17) نموذج فريد من نوعه في العمارة و الفني الاسلامي و العالمي، و فيه تبلورت أسس العمارة و الفن الإسلامي بالأندلس و المغرب الإسلامي و كان مصدر إلهام للفنان المسلم لعدة قرون. و قد اجتمعت في هذا الصرح بعض العناصر القوطية المحلية و الكلاسيكية الرومانية بالتقاليد الفنية الإسلامية، و كانت النتيجة فنا اسلاميا ذو شخصية فريدة تميزه عن فنون بقية الأقاليم الاسلامية الاخرى.

صورة رقم 17: جامع قرطبة، غابة العقود لقاعة الصلاة

ظهرت في هذا الجامع مجموعة من الابتكارات الهامة في العمارة و في الزخرفة و اصبحت منذ ذلك التاريخ تميز الفن الاسلامي بمنطقة الأندلس و المغرب الاسلامي. ابرز تلك الابتكارات كان استعمال صفين من العقود فوق بعضها البعض بطريقة ذكية سمحت برفع سقف قاعة الصلاة بما يتناسب و مساحتها و في نفس الوقت تضفي خفة و رشاقة على تلك الغابة من العقود رغم عددها الهائل و المساحة الوسعة لقاعة الصلاة (صورة رقم 17). و من الأمور المبتكرة أيضا هو الاعتماد على العقد الحدوي الذي اصبح علامة مميزة للفن الأندلسي و العقود المفصصة التي تطورت بشكل مذهل في هذا الجامع و اصبحت من العناصر الزخرفية للفن الاندلسي. مع استعمال صنجات في تلك العقود بلونين مختلفين (الاصفر و الأحمر) بشكل متناوب، أو صنجات ملساء تتناوب مع اخرى مزخرفة. و من بين الاختراعات المهمة أيضا هو القباب المضلعة (صورة رقم 18)، و المحراب المضلع الذي أصبح نموذجا بنيت و زخرفت على منواله جل محاريب المساجد في الغرب الاسلامي، و المئذنة المربعة ذات طابقين.

PDF Creator Trial

من الناحية الزخرفية نلاحظ استمرار استعمال فن الفسيفساء في الزخرفة، حيث استعملت لكسوة القبة المضلعة امام المحراب، و لكسوة واجهة المحراب، و لكن بتصاميم جديدة تختلف عن تلك التي كانت شائعة في الفن الكلاسيكي البيزنطي و الروماني كتلك التي استعملت في المباني الأموية في بلاد الشام، و اصبحت تعتمد أساسا على العناصر النباتية و بشكل خاص المراوح و الزهيرات و كذلك الافاريز الكتابية بالخط العربي

صورة رقم 18 : جامع قرطبة، القبة المضلعة أمام المحراب

(صورة رقم 19). و يعد تصميم المحراب من الابتكارات الرائدة في جامع قرطبة من حيث شكله المضلع، و عقده الحدوي الذي يعلوه إفريز من العقود الصماء و الافريز الكتابي الذي يؤطر عقد المحراب، هذه التصميم اصبح منذ ذلك العهد النموذج الاولي للمحاريب في الغرب الإسلامي إلى يومنا هذا.

صورة رقم 19 : محراب جامع قرطبة

كما استعملت في هذا المسجد لأول مرة في الغرب الإسلامي زخارف نباتية كثيفة و التي تعرف بالرقش العربي، تعتمد على عناصر نباتية كانت معروفة في الحضارات القديم و بشكل أوراق و عناقيد العنب و ورقة الأكانتس و إن كانت لا تزال تحتفظ بشكلها القديم، فإن معالجتها و استعمالها كان بشكل مختلف عما كان عليه في القديم بتصاميم جديدة مع التكرار اللامحدود الذي يميز فن الرقش العربي، كما ضهر عنصر نباتي جديد و هو المراوح النخلية المعرَّقة و التي سيكون لها شأن كبير في الزخرفة النباتية بالمنطقة لعدة قرون. و يظهر ذلك بشكل خاص في اللوحات الرخامية على جانبي المحراب و في زخرفة عقود بوابات الجامع. كما ازدهرت أيضا التركيبات الهندسية المعتقدة التي ارتبط ظهورها بتقدم علم الهندسة و الرياضيات الآمر الذي يسمح بتشكيل لوحات غاية في التعقيد و الجمال، تقوم على اساس الدوائر و المضلعات المتنوعة تتقاطع فيما بينها لتشكل لوحات هندسية في غاية الجمال، و كانت تنجز هذه التشكيلات الزخرفية إما عن طريق النحت و التخريم عند استعمالها في تشكيل شمسيات المساجد و القصور الأموية، أو باستعمال حجارة متعددة الالوان يتم تقطيعها ثم تجميعها لتشكل لوحات يتم استعمالها لكسوة الجدران و تبليط الأرضيات، و نشاهد اجمل النماذج عنها في زخرفة بوابات جامع قرطبة (صورة رقم 20). و تعبر هذه التشكيلات الهندسية عن اتجاه الفن الاسلامي نحو التجريد و البحث عن

PDF Creator Trial

صورة رقم 20 : إحدى بوابات جامع قرطبة

اساليب جديدة في التعبير الفني بعيدا عن التجسيد و محاكاة الطبيعة الذي كان يميز الفنون في الحضارات القديمة و بشكل خاص الحضارات الرومانية و البيزنطية و الساسانية التي كانت تهيمن على التقاليد الفنية في الأقاليم التي اصبحت أرض إسلامية.

شهد العصر الأموي بالأندلس تبلور فنا إسلاميا مميزا، يختلف عن الفن الإسلامي الأموي أو الفن العباسي، حيث تمكن الفنان الأندلسي اعتمادا على الموروث الثقافي المحلي و التقاليد الإسلامية القادمة من الشرق من إيجاد اسلوبه الخاص في العمارة و الزخرفة المعمارية و في الفنون التطبيقية شكلت القاعدة التي قام عليها الفن المغربي الأندلسي لاحقا و الذي لا يزال إلى يومنا منبع إلهام للمعماريين و الفنانين المسلمين و غير المسلمين.

PDF Creator Trial